عاهدوا وما بدلوا

عهود موثقة بالكتاب والسنة

لا مناص لسالك طريق الجهاد من العلم والعمل بها

الجزء الخامس

العهد التاسع: اتباع السنة في ساعة العسرة

قال الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (التوبة).

يقول الإمام الطبري: (يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابةَ إلى أمره وطاعته نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾، يقول: من بعد ما كاد يميل قلوب بعضهم عن الحق، ويشك في دينه ويرتاب، بالذي ناله من المشقة والشدة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، يقول: ثم رزقهم جلَّ ثناؤه الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه، وإبصار الحق الذي كان قد كاد يلتبس عليهم، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، يقول: إنَّ ربكم بالذين خالط قلوبهم ذلك لما نالهم في سفرهم من الشدة والمشقة رؤوف بهم، ﴿رَّحِيمٌ﴾ أن يهلكهم، فينزع منهم الإيمان، بعدما قد أبلوا في الله ما أبلوا مع رسوله، وصبروا عليه من البأساء والضراء)[1].

وقال القرطبي: (﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، أي: في وقت العسرة، **والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرد ساعة بعينها**. وقيل: ساعة العسرة أشدُّ الساعات التي مرَّت بهم في تلك الغزاة. والعسرة صعوبة الأمر. قال جابر: اجتمع عليهم عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء. قال الحسن: كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة[2] المنتنة، وكان النفر يخرجون ما معهم– إلا التمرات– بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم، فلا يبقي من التمرة إلا النواة، فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) جامع البيان ١١/٥٤.

(٢) الإهالة: الشحم.

على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم. وقال عمر رضي الله عنه وقد سُئل عن ساعة العسرة: خرجنا في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد، حتى ظننا أنَّ رقابنا ستنقطع من العطش، وحتى أنَّ الرجل لينحر بعيرة فيعصر[1] فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده. فقال أبوبكر: يارسول الله، إنَّ الله قد عوَّدك في الدعاء خيرًا، فادع لنا. قال: (**أتحب ذلك؟**)، قال: نعم. فرفع يديه فلم يرجعها حتى أظلَّت السماء ثم سكبت فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. وروى أبو هريرة وأبو سعيد، قالا: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأصاب الناس مجاعة وقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا[2] فأكلنا وأدهنَّا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**افعلوا**). فجاء عمر وقال: يا رسول الله، إن فعلوا قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة. قال: (**نعم**). ثم دعا بنطع[3] فبسط، ثم دعا لفضل الأزواد، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. قال أبو هريرة: فحرزته فإذا هو قدر ربضة العتر، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة، ثم قال: (**خذوا في أوعيتكم**)، فأخذوا في أوعيتهم حتى– والذي لا اله إلا هو– ما بقي في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكل القوم حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: (**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة**). خرَّجه مسلم في صحيحه بلفظه ومعناه، والحمد لله)[4].اهـ.

وقال البغوي عند قوله تعالى: ﴿**مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ**﴾: (والزيغ الميل... ولم يُرِد الميل عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلُّف والانصراف للشدة التي عليهم. قال الكلبي: ﴿**مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ**﴾، همَّ ناس بالتخلف ثم لحقوه)[5].

---

(١) الفرث: السرجين (الزبل) مادام في الكرش.

(٢) الناضح: البعير يستقى عليه ثم استعمل في كل بعير وإن لم يحمل الماء.

(٣) النطع: بساط من الأديم.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٨.

(٥) معالم التنزيل ٣٣٣/٢.

وقال ابن كثير: (﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾، أي: عن الحق، ويشك في دين رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرتاب، بالذي نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه)[1].

وقال أبو حيان: (وكاد تدل على القرب لا على التلبس بالزيغ)[2].

وقال الآلوسي: (﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ﴾، بيان لتناهي الشدة وبلوغها الغاية القصوى، وهو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلُّف عن النبي صلى الله عليه وسلم)[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/٢٢٩.

(٢) البحر المحيط ٥/١١١.

(٣) روح المعاني ١١/٤٠.

الوصايا

الوصية الأولى: حرص المجاهدين على السنة

حين بيَّن الله جلَّ جلاله أنه ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، أشار للسبب، وهو اتِّباعه عليه الصلاة والسلام، كما بيَّن أنَّ ذلك الاتباع كان في ساعة العسرة، فسبب التوبة عليهم اتضح، وهي تعمُّ جميعَ من يتبع أمر النبي عليه الصلاة والسلام في ساعة العسرة، سواءً في غزوة العسرة أو ما بعدها، إلى يوم القيامة، فإنَّ من المقطوع به أنَّ اتِّباعه عليه الصلاة والسلام في ساعة العسرة له خصوصية عظيمة، فليهنأ أهل الميدان بكل عسرة تصيبهم وهم على اتِّباع رسول الله عليه صلوات الله وسلامه قائمون ولسنته ملازمون، ولهم فيما قال الله نصيب ماداموا متبعين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته ولسنته بعد مماته: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ (التوبة).

فساعة العسرة لم تكن سببًا لتخفيف الاتِّباع، والتحلل من السنة، بل سببًا لمزيد الاتِّباع والتمسك بسنته صلى الله عليه وآله وسلم لأجل الله وحده، ثم لأجل رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولأجل هذا الجهاد في سبيل الله، ولأجل تحقيق النصر سريعًا، فلنعلن اتِّباعه ولنبرأ من الابتداع.

ولا أحسب أحدًا يخالف في هذا... كيف والأحاديث في هذا قطعية الثبوت والدلالة؟!

وبما أنَّ اتِّباع السنة من أعظم أسباب الانتصار على أعداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، **فإنَّ من أعظم أسباب الهزائم الابتداع**، وحريٌّ بمجاهد خالف كل نداءات الهوى والدنيا أن يجعل مخالفته تلك التزامًا بسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أفنتبعه في بيع أرواحنا رخيصة في الجهاد على طريقته، ويصعب علينا اتباعه في أمور العبادات؟!

من يدري لعل ممن جاهدوا في سبيل الله رجال يطردهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن حوضه؛ لأنهم غيَّروا وبدَّلوا حيث تقول الملائكة عنهم: (إنك لا تدري ما عملوا بعدك) ... فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: (**سحقًا سحقًا لمن بدَّل بعدي**)[1].

أيها المجاهدون العابدون على طريقة التصوف القريبة من السنة: إنَّ ادعاءكم شدة محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقتضي اتِّباعه صلوات ربي وسلامه عليه، ورب العالمين قد اشترط لمحبته اتِّباع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال سبحانه: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٣١) ﴾ (آل عمران). فبرهِنوا على محبتكم الصادقة لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم باتِّباعه.

لعلكم- أيها المتصوفون المجاهدون- من أعظم الناس اشتياقًا للقائه صلى الله عليه وآله وسلم، فهل يظن أحد أنه صلى الله عليه وآله وسلم سيفرح به إذا كان على غير سنته، وإذا ابتدع عليها؟!

أيها المجاهد الصوفي: إذا اختلفتُ معك في أمر من أمور العبادة فقلت لك: إنه بدعة. وأنت قلت لي: إنه ليس ببدعة، وقررنا أن نحتكم لعالم كبير من علمائنا، واتفقنا على الرضا بحكمه، فَحَكَم على أنها بدعة، فهل تتركها؟

إذن فهل ترضى أن نحتكم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ ليحكم هو في عباداتنا، وطرقنا التعبدية؟

فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**). وفي رواية أنه قال: (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)[2]، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**)[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٨٣)، ومسلم (٦٠٣٢)، وأحمد ٢٣/٨.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (٤٥٨٩)، وأحمد ٧٣/٦، وأبو داود (٤٦٠٦)، وابن ماجه (١٤).

(٣) أخرجه مسلم (٦٩٠١)، وأحمد ٣٩٧/٢، والترمذي (٢٦٧٤)، وابن ماجه (٢٠٦)، والدارمي (٥١٣)، وأبو يعلى (٦٤٨٩)، وابن حبان (١١٢).

قال مالك: (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أنَّ محمدًا خان الرسالة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾. فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا)[1].

ولا يزال السلف يحذِّرون من البدع وأهلها، فعن جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في خطبته: (**وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**)[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾(الأنعام: ١٥٩).

قال ابن عطية: (هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل، ومظنة لسوء المعتقد)[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (الأنعام: ١٥٣). **قال الشاطبي:** (والسبل هي أهل البدع، ليس المراد سبل المعاصي؛ لأنَّ المعاصي من حيث هي معاصٍ لم يضعها أحدٌ طريقًا تُسلك دائمًا على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات)[4].

وقال مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، (السبل: البدع والشبهات)[5].

والراد على المبتدعة مجاهد في سبيل الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فالراد على أهل البدع مجاهد... والنصح واجب في المصالح الدينية الخاصة والعامة، ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة، فإنَّ بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد ابن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟، فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين، هذا أفضل. فبيَّن: أنَّ نفع هذا

---

(١) الاعتصام ١/٦٤.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦٠) ،وأحمد ٣/٣١٠، وأبو داود (٢٩٥٤)، والنسائي ٣/٥٨، وابن ماجه (٤٥)، والدارمي (٢٠٦).

(٣) المحرر الوجيز٢/٣٦٤.

(٤) الاعتصام ١/٧٦.

(٥) الاعتصام ١/٧٦.

عام للمسلمين من جنس الجهاد في سبيل الله، إذ تطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته ودفعه بغيَ هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فسادهم أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب؛ فإنَّ هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً)[1].

لكنَّ هذا شيء وتفريق جماعة المسلمين بحجة وجود أصحاب بدعة فيها شيء آخر...!

فلا ينبغي أن نُكبِّر البدعة- إن لم تكن كبيرة- حتى تكون سببًا للافتراق؛ بل الواجب أن يكون ما بيننا وبين هؤلاء الأخوة ممن يفعلون بعض البدع- غير المكفِّرة- سببًا لأداء حقوق كثيرة، من أعظمها النصح لتصحيح المعتقد واتباع السنة...

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (ومما ينبغي أن يعرف أنَّ الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات: منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم من يكون إنما خالف السنة في أمور دقيقة، ومنهم من يكون قد ردَّ على غيره من الطوائف الذين هم أبعد من السنة منه، فيكون محمودًا فيما ردَّه من الباطل وما قاله من الحق، لكن قد جاوز العدل في ردِّه بحيث جحد بعض الحق، وقال بعض الباطل، فيكون قد ردَّ بدعة كبيرة ببدعة أخف منها، ورد باطلاً بباطل أخف منه، وهذه حال أكثر أهل الكلام المنتسبين إلى السنة والجماعة، **ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه ويعادون، كان من نوع الخطأ، والله سبحانه وتعالى يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك**)[2].

ولكن لا ينبغي الاستعجال بإطلاق لفظ المبتدع على كل أخ أو فصيل عنده بدعة معينة، ففاعل البدعة ليس بالضرورة أن يكون مبتدعًا كما قرر شيخ الإسلام[3]، كيف إذا تجرأ البعض على تكفير من يفعلون بعض البدع من إخواننا المجاهدين في سبيل الله.

ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين يشدِّد في قضية من يُكفِّر المسلمين أو يستحل دماءهم ببدعة، فيقول: (من كفَّر المسلمين أو استحلَّ دماءهم وأموالهم ببدعة ابتدعها ليست في

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٢٣١.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ٣٤٨.

(٣) انظر كتاب: أصول الحكم على المبتدعة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، د. أحمد الحليبي.

كتاب الله ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإنه يجب نهيه عن ذلك وعقوبته بما يزجره **ولو بالقتل** أو القتال؛ فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف، وأُكرم المتقون من جميع الطوائف، كان ذلك من أعظم الأسباب التي ترضي الله ورسوله وتصلح أمر المسلمين)[1].

الوصية الثانية: لا تعظّموا الزيغ

قال تعالى: ﴿ **لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴿١١٧﴾ ﴾(التوبة).

من هذه الآية نستخلص حقيقة هي من الأهمية بمكان، تلك هي أن لا نعظِّم الزيغ، فضلاً أن نشمت بمن كاد يزيغ (وهذا إذا فسَّرنا الزيغ بتفسير البغوي)، فأيُّ معصوم أو جماعة معصومة هذه التي تزكي أصحابها عن ذلك الزيغ بعدما ذكر الله ذلك عن خير أصحاب لخير صاحب صلى الله عليه وآله وسلم ورضي الله عنهم.

فالشماتة بالمسلمين ممنوعة، وقد روي **عن مكحول، عن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك)**[2].

والمؤمن أكبر من أن يجعل الخصومة الكلامية بينه وبين أخيه حرب سجال.

فعن أبي جُرَيٍّ، جابر بن سليم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **(ولا تحقرن شيئًا من المعروف، وأن تكلِّم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إنَّ ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار، فإنها من المخيلة**[3]**، وإنَّ الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك، فلا تعيره بما تعلم فيه، فإنما وبال ذلك عليه)**[4].

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٢٣/٣.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٠٦)، وقال: حسن غريب. والطبراني (١٢٧)، والقضاعي (٩١٩)، والبيهقي في "الشعب" (٦٧٧٧)، وقال الألباني: وفي تحسين الحديث نظر، فإنَّ فيه عنعنة مكحول.

(٣) أي الخيلاء.

(٤) أخرجه أحمد ٦٣/٥، وأبو داود (٤٠٧٥)، والترمذي (٢٧٢٢)، وقال: حديث حسن صحيح . والنسائي في "عمل اليوم والليلة" (٣١٧)، وفي "الكبرى" (٩٦١٥)، وصححه الألباني وشعيب.

الوصية الثالثة: سرعة الأوبة بعد الزيغ

قال ابن اسحاق: ثم إنَّ أبا خيثمة رجع بعد ما سار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أيامًا إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه، قد رشَّت كل واحدة منهما عريشها، وبردت فيه ماءً، وهيَّأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ما هذا بالنصف، والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فهيِّئا زادًا. ففعلتا ثم قدم ناضحه فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تبوك، وكان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فترافقا حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير ابن وهب: إنَّ لي ذنبًا فلا عليك أن تخلَّف عني حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. ففعل حتى إذا دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كن أبا خيثمة**). فقالوا يا رسول الله: هو والله أبو خيثمة. فلما بلغ أقبل فسلَّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: (**أولى لك يا أبا خيثمة**)، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، فقال خيرًا ودعا له بخير، وقد ذكر عروة بن الزبير وموسى بن عقبة قصة أبي خيثمة بنحوٍ من سياق محمد بن إسحاق وأبسط...

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة، واسمه مالك بن قيس، في ذلك:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيت التي كانت أعف وأكرما
وبايعت باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثمًا ولم أغش محرما
تركت خضيبًا في العريش وصرمة ... صفايا كرامًا بسرها قد تحمما
وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدين نفسي شطره حيث يمما[1]

(١) البداية النهاية ٥/٧.

ولذا فعلى الأخوة الثابتين أن لا يعينوا الشيطان على إخوانهم، وأن يراسلوهم ويواصلوهم حتى يعيدوهم، بالمقالة والشعر والمراسلة، وما إلى ذلك، فوقوع الزيغ وارد، والزائغون أنواع، وكل فتنة تكشف أصحابها.

قال صاحب الظلال عن هذه الآية: (ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت (العسرة) كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة، يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية من اليقين الجاد عند طائفة، إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة، إلى القعود والتخلف- بغير ريبة- عند طائفة، إلى **النفاق الناعم** عند طائفة، إلى **النفاق الفاجر** عند طائفة، إلى **النفاق المتآمر** عند طائفة، مما يشي أولاً بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة، ويشي ثانيًا بمشقة الغزوة- في مواجهة الروم ومع العسرة- هذه المشقة الممحصة، الممتحنة الكاشفة، والتي لعل الله جلَّ جلاله قد قدَّرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز)[1].

ومن قبل سيد رحمه الله، قال شيخ الإسلام رحمه الله: (فهناك النفاق المحض، وهناك نفاق العمل، وهناك من تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، وهو لِما غلب عليه منهما. وقال: وقد بيَّن تفاضل المؤمنين في مواضع أخر، وأنه من أتى بالإيمان الواجب استحق الثواب، ومن كان فيه شعبة نفاق وأتى بالكبائر فذاك من أهل الوعيد، وإيمانه ينفعه الله به، ويخرجه به من النار ولو كان مثقال حبة خردل، لكن لا يستحق به الاسم المطلق المعلق به وعد الجنة بلا عذاب، وتمام هذا أنَّ الناس قد يكون فيهم من معه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب الكفر أو النفاق، ويسمى مسلمًا كما نص عليه أحمد)[2].

فلم اليأس مادام الأمر وقع من بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟!

و لم اليأس وعفو الله مأمول؟!

---

(١) في ظلال القرآن ١٧٢٧/٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٣٥٠/٧.

الوصية الرابعة: تكاليف الاتِّباع

قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (التوبة).

هكذا تصنع الفتن، ويتقلب الرجال، ويُنزع الإيمان، وتُرفع الأمانة، ويرتد الممسي بطلوع الصباح، ثم يعود، وهكذا... وعليه فإنَّ المنطق الطبيعي هو ازدياد التمسك بالكتاب والسنة؛ لأنهما الحبل المتين والعروة الوثقى وسط المتغيرات، وإلا فأيُّ شيء يثبت غير الكتاب والسنة والتمسك بهما؟!

فالتمسك بالكتاب والسنة سبيل الإنقاذ الوحيد؛ لأنَّ مفارقة العروة الوثقى وسط الطوفان مجازفة بالمصير.

والمناداة بتطبيق السنة إنما يقتضي العلم بالسنة أولاً، وينبغي أن يكون تطبيق السنة شاملاً لجميع السنن في جميع شؤون الحياة، فلا ينبغي أنَّ نفرِّق ما بين السنن حسب الهوى أو حسب العادة، أو حسب وقع السنن عند الناس كما يفعل البعض، فإنَّ العمل بالسنن يشمل السنن الواردة من يوم يصيح صيحته الأولى عند القدوم إلى الدنيا إلى أن تنقضي الأيدي من ترابه، إن دفن في التراب.

وهذه السنن ينبغي أن تحوَّل إلى منهج عمل يغطي الحياة كلها اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يسع المسلم مخالفته إلا لمصلحة راجحة كالمصالح المعروفة في تخفي المجاهدين، وقضائهم مهامهم، وصرف العيون عنهم، وحماية الضرورات الخمس من دين وعرض ومال... إلخ.

ولتشمل السنن الواردة في أركان الإسلام العبادية كما تشمل سننه صلى الله عليه وآله وسلم الواردة في أخلاقه، بشمولية الأخلاق لمجالات الحياة، وخصوصًا مجالات التعامل، مبتدئًا بالأهل، فالأقرب، والأقرب...

وعند تطبيق السنن بهذه الجدية والشمولية مع احتساب وجه الله تعالى في الاقتداء به صلى الله عليه وآله وسلم لن يبق إشكالاً بين أهل الجهاد، وذلك أنَّ الفرد لا يسعه إلا الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك الجماعات... وهكذا كان الصحابة والتابعون يتوقفون في كل أمر حتى

إذا بلغهم أنَّ في ذلك حديثاً قوليًّا أو سنة عملية أو تقريرية تركوا ما هم عليه مهما كان استمساكهم أو استمرارهم عليه من قَبْل إلى السنة فرحين بالسنة أعظم من فرحهم بأيِّ محبوب.

العهد العاشر: التحدث بلغة الإيمان

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّۖ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾ ﴾ (النساء).

اختلف المفسرون في المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ ﴾.

قال الطبري: (هذا نعت من الله تعالى ذكره للمنافقين، نعتهم لنبيه صلى الله عليه وآله وأصحابه، ووصفهم بصفتهم، فقال: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ ﴾، أيها المؤمنون، يعني من عدادكم وقومكم، ومن يتشبه بكم، ويظهر أنه من أهل دعوتكم وملتكم، وهو منافق يبطِّيء من أطاعه منكم عن جهاد عدوكم وقتالهم إذا أنتم نفرتم إليهم. ﴿ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ ﴾، يقول: فإن أصابتكم هزيمة، أو نالكم قتل أو جراح من عدوكم، ﴿ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾، فيصيبني جراح أو ألم أو قتل. وسر تخلفه عنكم؛ لأنه من أهل الشك في وعد الله الذي وعد المؤمنين على ما نالهم في سبيل الأجر والثواب، وفي وعيده، فهو غير راج ثوابًا، ولا خائف عقابًا)[1].

وقال البغوي: (وإنما قال: ﴿ مِنكُمۡ ﴾، لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية والنسب وإظهار الإسلام لا في حقيقة الإيمان، ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾، أي: ليتأخرن وليتثاقلن عن الجهاد)[2].

وقال ابن جُزَي: (﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾، الخطاب للمؤمنين، والمراد بمن المنافقين، وعبَّر عنهم بـ "منكم"، إذ هم يزعمون أنهم من المؤمنين، ويقولون: آمنا. واللام في "لمن" للتأكيد، وفي "ليبطئن" جواب قسم محذوف، ومعناه يبطِّئُ غيره يثبطه عن الجهاد، ويحمله على التخلف عن الغزو)[3].

وقال القرطبي: (وقيل المراد بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ بعض المؤمنين؛ لأنَّ الله خاطبهم بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ ﴾. وقد فرَّق الله بين المؤمنين والمنافقين بقوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمۡ ﴾، وهذا يأباه مساق

---

(١) جامع البيان ١٠٥/٥.

(٢) معالم التنزيل ٤٥١/١.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٤٨/١.

الكلام وظاهره، وإنما جمع بينهم في الخطاب من جهة الجنس والنسب، كما بينا، لا من جهة الإيمان، هذا قول الجمهور وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. يدل عليه قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾، أي: قتل وهزيمة، ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾، يعني بالقعود، وهذا لا يصدر إلا في منافق لا سيما في ذلك الزمان الكريم، بعيد أن يقوله مؤمن... وقيل: المعنى ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كأن لم يعاقدكم على الجهاد)[1].

وقال ابن عاشور: (وعلى كون المراد ﴿لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾، المنافقين، حَمَل الآية مجاهد وقتادة وابن جريج. وقيل: أريد بهم ضعفة المؤمنين يتثاقلون عن الخروج إلى أن يتضح أمر النصر. قال الفخر: وهذا اختيار جماعة من المفسرين)[2].

وقال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾: (أي: إذا لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قُتل)[3].

أما الأستاذ سيد فيقول عند هذه الآية: ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾: (إنهم لا يخجلون- وهم يعدون هذه النجاة مع التخلف نعمة- أن ينسبوها لله! الله الذي خالفوا عن أمره فقعدوا! والنجاة في هذه الملابسة لا تكون من نعمة الله أبدًا، فنعمة الله لا تنال بالمخالفة، ولو كان ظاهرها نجاة! إنها نعمة! ولكن عند الذين لا يتعاملون مع الله، عند من لا يدركون لماذا خلقهم الله، ولا يعبدون الله بالطاعة والجهاد لتحقيق منهجه في الحياة، نعمة عند من لا يتطلعون إلى آفاق أعلى من مواطئ الأقدام في هذه الأرض... كالنمال... نعمة عند من لا يحسون أنَّ البلاء- في سبيل الله وفي الجهاد لتحقيق منهج الله وإعلاء كلمة الله- هو فضل واختيار من الله، يختص به من يشاء من عباده، ليرفعهم في الحياة الدنيا على ضعفهم البشري، ويطلقهم من إسار الأرض يستشرفون حياة رفيعة،

---

(١) الجامع لأحكام القران ٢٧٦/٥.

(٢) التحرير والتنوير ١١٩/٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٥٧/٢.

يملكونها ولا تملكهم، وليؤهلهم بهذا الانطلاق وذلك الارتفاع للقرب منه في الآخرة... في منازل الشهداء... إنَّ الناس كلهم يموتون! ولكن الشهداء- في سبيل الله- هم وحدهم الذين "**يستشهدون**"، وهذا فضل من الله عظيم) [1].

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٠٦.

الوصايا

الوصية الأولى: كيف يفكِّر المنافق

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (النساء)، ومن ثمار إخبار الله تعالى لنا بما يقول المنافقون هنا هو أن نعرف كيف يفكِّر هؤلاء القوم، فنحمد الله تعالى على نعمة الهداية التي تفضَّل الله بها علينا.

هذه اللغة هي التي انتشرت اليوم في المجتمع الإسلامي على وجه العموم، وفي المجتمع العراقي على وجه الخصوص.

ومصيبةُ هذه الكلمة أنها إذا كثر المتحدثون بها استقرت في قلوبهم، وفي قلوب عامة المجتمع، حتى أصبحتَ تسمع وبأعلى صوت عمن يقتل في سبيل الله أنه مات ولو أنه قعد لما أصابه ذلك! وقد قلنا له ذلك لكنه لم يستمع إلينا!

وأننا عرضنا عليه الوظيفة والمرتب والزواج لكنه أبى!

أرأيت كيف فاته الخير الكبير! انظر إلى صاحبه فلان إلى أيِّ المراتب توصل، وفلان تزوج وأعال وما إلى ذلك! بينما رمَّل هذا الزوجة ويتَّم الأبناء... فمن يربيهم اليوم؟!

ويعلو لحن هذه اللغة حين يكثر البكاء عليه ندمًا على فوات ما ذكروا من الدنيا وذهابه عنها.

وكل هذا من **لحن المنافقين** الأوائل: ﴿ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾، ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فالله تعالى يسميها ﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾، فيها الألم، وفيها الجرح، وفيها الخوف، وفيها الهرب، وفيها إهلاك المال، وفيها انتقام العدو من الأهل، من العرض، من المساكن، وربما فيها القتل... ومع كل هذا الذي فيها إلا أنَّ الله تعالى جعلها من قول المنافقين واعتقاد المنافقين.

وقد نهانا الله تعالى عن هذا أشدَّ النهي فقال جلَّ جلاله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ (آل عمران).

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ ﴾ (آل عمران)، والمصيبة أنَّ هذه اللغة النفاقية ليست لغة في اللسان فحسب إنما هي عقيدة مستقرة في القلب، وقد حاسب الله جلَّ جلاله كما رأيت على كلماتها، وأعادها إلى مصدرها، وهو القلب فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦ ﴾ (آل عمران).

والمصيبة الأخرى أنَّ هذه الكلمة لا تقتصر على ميدان الجهاد إنما تعم ميادين الحياة كلها، عند الإنفاق، وعند الاختلاف، وعند الجدال، وعند الاختصام، وما إلى ذلك.

والحقيقة شيء آخر: هات كل نعم الحياة التي سيتمتع بها هذا الذي يقول: ﴿ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ ﴾ في حياته، وضعها في مقابل فضائل الشهيد، ثم احكم بمقاييس هؤلاء... سترى الحكم لصالح الشهيد حتى بمقاييسهم هم!

هات موتة على سرير وثير، وبطائن من حرير، لأنعم منافق طرير[1]... مقارنًا إياها بموتة الشهيد في بريَّة أو غابة أو تحت جدار... وسترى أنَّ الموتة هي الموتة، لكن أين روح تنزع من كل خلية حية من خلاياه من قرصة نملة؟! أين الأهوال يراها المنازع على فراشه من قطرة تسقط من فيِّ السقاء؟!

فأين هذا من هذا؟!

(١) رجل طرير: ذو طرة وهيئة حسنة وجمال. لسان العرب ٤/٤٩٨.

المؤمن الحق من يخاف على نفسه من طول بقائه إذا رأى إخوانه يرحلون وهو يسلم من بينهم في كل مرة، نعم هو يخاف ويرجو أن يجمع الله له ما بين طول العمر والعافية مع حسن العمل والختام على الشهادة مقبلاً غير مدبر، أما المنافق فيخاف على نفسه الموت، وهو لا يريده على أيِّ وجه كان.

الوصية الثانية: إشاعة لغة الشهداء

لا ينبغي لدعاة التحريض على الجهاد في سبيل الله تعالى أن يركنوا إلى معلومات الناس عن فضائل الجهاد والشهادة والتي تلقوها من قَبْل في المساجد أو الكتب، أو من خلال بعض الرسائل التي نشرت، بل يجب أن يشاع الحض على الجهاد والشهادة من جديد، وأن نحض من لديه المقدرة على الحض؛ كي يحض الناس، حضًّا يشمل الجميع، من شبيبة إلى والدين، إلى كبار قادرين...

فيا ولي الأمر المسلم: مالك تغضب على الشباب العراقي الصالح، الذين تعرف علمهم وتقواهم وتهددهم بالانتقام إن حضَّوا ولدك على الجهاد والشهادة؟!

إلى من تدخره، وإلى متى تدخره؟!

هل تدخره لموتةٍ على الفراش، أم تدخره لتفجع فيه أو يفجع فيك يومًا من الأيام، ومع هذا فكل ذلك الحرص منك على ولدك لن يغني عنه مما كتب الله عليه من شيء، حُضَّه على الجهاد فلك النية، أما قَدَر الله فهو ماض إلى طريقه في ولدك، فلا تُحرم النية الصالحة التي يكتب لك أجر عملها ولو لم تعملها، فإنَّ الله جلَّ جلاله يخاطبك كما يخاطب ولدك، ويخاطب الناس جميعًا فيقول: ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴿١٥٤﴾﴾ (آل عمران).

أيتها الأسرة المسلمة: سترحل أسرتكم كما ترحل جميع الأسر، فأيُّ أسرة أسعد من أسرة قدمت شهيدًا، شفيعًا سيشفع في سبعين من أهل بيته... ومن أحق منكم؟!

لكن أي أسرة مسلمة أكبر حرمانًا وحسرة من أسرة عراقية حين ترى بقية الأسر العراقية تأتي يوم القيامة بشهداء وشفعاء، أما هي فجاءت سالمة من الشهادة، مُسلَمة إلى حسابها، مرهونة بعملها؟!

ألم يقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، كما في حديث المقدام بن معدي كرب: (**للشهيد عند الله سبع خصال: يُغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويُحلَّى حلة الإيمان، ويزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنسانًا من أهل بيته**)[1].

هل فكرت- أيها الشاب- في هذا الحديث جيدًا؟

هل فكرت بأصعب المواقف التي تنتظر الناس جميعًا من لحظة الموت إلى الخلود؟

فمَن مِن الموتى يتجاوزها إلا الشهيد المقبول؟

فهذه الذنوب سبب هلاك الناس، يتخلص منها الشهيد من أول قطرة دم... فإذا ذهبت الذنوب من أول قطرة، فلن يعذب بخروج روحه في باقي القطرات، فالذنوب قد غُفرت وكفى!

وماذا يخاف الميت بعد الموت إلا من عذاب القبر الذي هو الهول الفظيع الذي ما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفظع منه! وليس للشهيد عليه من خوف... إنما هو الأمان كما في الحديث: (**ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**)[2].

وهكذا فكل فضيلة للشهادة إنما هي دعوة للمؤمن للحرص على الشهادة حتى لو كانت أمنية صادقة.

أيها الشباب: استوثقوا جيدًا لصحة طريقكم ولا تتعجلوا مع كل من نادى على عمل استشهادي، فلقد خُدع بعض الشباب المتشوق للشهادة دون التحقق من سلامة الطريق والمنهج، فذهبوا وهم لا يعلمون بالخديعة، ولربما أدركها البعض بعد فوات الأوان، حيث أصبح خط العودة مستحيلاً، فذهبت روحه في أسفه وحسرته نادمًا وهو حسير!

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٩٥٥٩)، وأحمد ١٣١/٤، والترمذي (١٦٦٣) وقال: حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٢٧٩٩)، والطبراني (١٧٠١٧)، والبيهقي في "الشعب" (٤٢٥٤)، وابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٢٧٣٤). وقال المنذري: وإسناد أحمد حسن. وقال الهيثمي: رجال أحمد والطبراني ثقات. وقال الحافظ في "فتح الباري" ٢٠/٦: إسناده حسن. وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٨) وحسَّنه، وابن ماجه (٤٢٦٧)، وعبد الله بن أحمد في زياداته على المسند ٦٣/١، والحاكم (٧٩٤٢). وقال الألباني: صحيح.

فإذا ما استوثقت فليس لك إلا أن تَهَبَ الروح إلى بارئها، بائعًا مستبشرًا ببيعك الذي بايعت، فعن أنس رضي الله عنه، أنَّ رجلا أسود أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إني رجل أسود، منتن الريح، قبيح الوجه، لا مال لي، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل، فأين أنا؟ قال: (**في الجنة**). فقاتل حتى قتل، فأتاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: (**قد بيَّض الله وجهك، وطيَّب ريحك، وأكثر مالك**). وقال لهذا أو لغيره: (**لقد رأيت زوجته من الحور العين نازعته جبة له من صوف، تدخل بينه وبين جبته**)[1].

أيها المسلم: رسالة واحدة أطارت عقول شباب الأمة نحو الجنة، فلم يستقر لهم قرار حتى لقي الله منهم من لقي شهيدًا في سبيله، ومازالت كلماتها بذورًا تنبت الشهداء.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن منقلبهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب**). فقال الله عزَّ وجلَّ: أنا أبلِّغهم عنكم. فأنزل الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الآيات: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴿١٦٩﴾ ﴾[2] (آل عمران). أفلا تتمنى- أيها الشاب- منزلة تمناها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: (**والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو، فأقتل، ثم أغزو، فأقتل**)[3].

وعندما يكشف الغطاء، ويرى الشهيد عِظم الجزاء، يدرك عظم ما ختم الله له به رغم ما عنده من العلم بفضل الشهادة، وذلك العلم الذي دفعه له، لكن ما رآه شيء آخر.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٤٦٣). وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه أحمد ٢٦٥/١، وعبد بن حميد (٦٧٩)، وأبو داود (٢٥٢٠)، والحاكم ٣٢٥/٢، والبيهقي ١٦٣/٩. وحسنه الألباني وشعيب.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦)، ومسلم (٤٩٦٧)، وأحمد ٢٣١/٢، وابن ماجه (٢٧٥٣) والنسائي ١١٩/٨.

فعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله له: يا ابن آدم كيف، وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب، خير منزل. فيقول: سل وتمنه؟ فيقول: وما أسألك وأتمنى؟ أسألك أن تردَّني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة**)[1].

أيتها الأم: هل من شيء تدخرين ولدك له أفضل من أن تدخريه شفيعًا لك ولأبيه؟!

لاشك أنك تحبينه، ولكن ماذا لو جاءك من تشهدين له بالرسالة؟! جاءك المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فبشرك بمنزلته، ماذا أنت صانعة؟!

أتواصلين البكاء والنحيب، أم تدفعين وراءه أخاه وأخاه، موقنة بأنَّ الأعمار بيد الله؟

وعن أنس رضي الله عنه، أنَّ أمَّ الربيع بنت البراء رضي الله عنها، وهي أم حارثة بنت سراقة أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة؟ وكان قتل يوم بدر، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء. فقال: (**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى**)[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (**عجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غزا في سبيل الله فانهزم، يعني أصحابه، فعلم ما عليه فرجع حتى أهريق دمه، فيقول الله عزَّ وجلَّ لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي حتى أهريق دمه**)[3].

ليست هذه الفضائل مقتصرة على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وليست هذه الرسالة موجهة لفئة خاصة من أصحاب الإيمان، بل هي رسائل موجهة لكل من يشهد أن لا اله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

ولو استذكرت الآن من شهدائكم من تقدَّم فنطقوا لما بلَّغوكم غير ما قال الله لكم، ولما تمنوا العودة إلى دنياكم كما يتمنى لهم البعض، ذلك إلا بحدود وقتٍ يجاهدون فيه، فيُقتلون في سبيل الله، ثم

---

(١) أخرجه أحمد ١٣١/٣، وعبد بن حميد (١٣٢٩)، والنسائي (٣١٦٠)، والحاكم (٢٤٠٥). وصححه الألباني وشعيب.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٩)، وأحمد ٢١٠/٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٩٩)، وأبو داود (٢٥٣٦)، والحاكم (٢٥٣١)، والبيهقي (١٧٧٠٩)، وحسَّنه الألباني.

يعودون فيجاهدون فيُقتلون في سبيل الله، وهكذا تتكرر الأمنية عشر مرات، وهم لا يشبعون من فداء الإسلام، وإعلاء كلمة الله، وحيازة فضائل الشهداء.

الوصية الثالثة: طوبى للغرباء

بمرور الأيام يخفت صوت المتحدثين بلغة الشهادة والجهاد في سبيل الله، ويرتفع صوت السلامة، والرغبة في تطويل العمر، بالتكيف مع الظروف، وإنكار الجهاد والشهادة من خلال الإنكار على هؤلاء المجاهدين، والتهاون في المخاطر المحدقة بالشرف، وما إلى ذلك من مبادئ.

ويزداد البلاء أكثر حين يكسب (تيار التعمير) داخل صفوف المجاهدين، تيار التعمير الذي هو برعم يستقي من ورثة من قال الله فيهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (البقرة). على حساب تيار الجهاد في سبيل الله تعالى.

فيعلو صوت الحياة الدنيا على داعي الآخرة مناديًا بالتكيف، والهدنة، وأنصاف الحلول، والتفاهم على حل يرضي الأطراف جميعًا، وحماية بعض المكتسبات، وما إلى ذلك من شنشنات!

فتصبح لغة الإيمان الحق غريبة، غريبة بين أهلها، فطوبى للغرباء.

هنا ينبغي لأهل الجهاد أن يعلموا أنه بلاء... وأنَّ هذا البلاء يزيد الأمانة ثقلاً، ويضيف على ثقلها ثقلاً، ومن ثم وجب عليهم أن يزدادوا استنصارًا بالله... ويزدادوا قوة، وتحملاً وتحديًا، حتى لو بقي مجاهد واحد لما حلَّ له إلا أن يقاتل حتى تنفرط سالفته، وذلك أنه بذهاب هذا الواحد يُطمس الحق، وإلا فما الذي جعل الإمام أحمد يتحمل فتنة خلق القرآن لوحده في نهاية الأمر؟

فالبشر هم البشر، لهم حاجياتهم، وفيهم ضعيفهم، ويحملون بين حناياهم هلعهم وطمعهم... فإذا ما رافق ذلك فقر الأسرة، وحاجة الصغار، وانعدام المسكن، وضغط الآباء والمجتمع، فإنَّ الصعوبة تتضاعف... وما أن يتذوق الحياة الدنيا على ضفة السلامة الأخرى يومًا ويومين، وشهرًا وشهرين، حتى يثقل جنبه، وتُكبَّل رجلاه، ويموت همه، ثم يصبح داعية للقعود، وأول من يدعوهم هم صحبه الذين كانوا معه، إذ هو أقدر على التأثير عليهم، **وهذا هو النفاق بعينه.**

وكم أعجز الكفارَ رجلٌ في ميدان الجهاد، لكنهم صرعوه بمنافقيهم في ميادين الحياة؟!

كم فشلت خططهم وأسلحتهم في سوح المواجهة، وكم نجحت ميزانياتهم في إغراء الرجال؟!

إننا نريد التواصي بالحق والتواصي بالصبر... نريد الفرار إلى الله لا إلى الدنيا... نريد أن يعلو صوتُنا صوتَ طلاب الحياة... نريد أن نشوِّقهم للقاء الله تعالى... نريد أن نهزم المنافقين في ميادين الحياة كذلك...

نريد أن نستجلب رجالاً من ميادين الحياة الدنيا إلى ميادين الجهاد... نريد أن لا يتفلت الجيل الجديد من أيدينا فيصبح همه الأكبر هو هذه الحياة... فنحن لا ندري كم ستطول المعركة.

فالغريب أنَّ الجزائريين ابتدأوا جهادهم بعد سبعين سنة، والفلسطينيين بعد أربعين سنة تقريبًا، أما نحن فلم نمهلهم بحمد الله، لكنَّ الخشية أن ينجح العدو في ترويض هذا الجيل الناشئ والذي بعده...

فإذا برد الجهاد، لا قدَّر الله، فمتى سيوقد جمر مواقد الجهاد؟

يتبعه الجزء السادس إن شاء الله تعالى...